اللغة العربية في افريقيا

* الخليل النحوي *
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/تونس

كانت اللغة العربية، قبل الإسلام، لغة قوم، تتوزع بهم إلى لغات قبائل. وكان ظهور الإسلام انقلابا كبيرا في تاريخ اللغة العربية، فقد أخذت لغات القبائل العربية تتجمع وتنصهر في لغة واحدة. ولكن اللغة الواحدة الجامعة، لم تعد لغة قوم، بل أصبحت لغة إنسانية، لا يختص بها قوم دون قوم، منذ أن اختارها الله مفصحة عن خطابه الأزلي للناس أجمعين. فمن قبل كانَ النبي يبعث إلى قومه خاصة، فإذا نزلت عليه صحف أو كتاب من الكتب السماوية ينزل ما نزل بلغة قومه، أما وقد بعث محمد بن عبد الله ﷺ للناس كافة، ونزل عليه القرآن بلسان عربي مبين، فقد حُرِّرت اللغة العربية من الطوق الجغرافي والبشري، الذي كانت فيه لسان قوم دون قوم، ورفع الله من شأنها لتكون لغة إنسانية تحمل دعوة التوحيد، والكلمة الطيبة، والحكمة النافعة، والقيمة الفاضلة إلى البشرية جمعاء..

لذلك لا نخطىء حين نقول أن للغة العربية هذه الميزة النادرة، إنها لغة كونية لا يجسد انتشارها سلطان قوم وسطوتهم على غيرهم، ولا يعكس سلطانها نزوع عرق من الأعراق للتفوق والهيمنة على غيره، وإنما تعلو بكلمة الله وتعلو بها كلمة الله، وتتوثق بها علائق الوحدة والوئام بين الشعوب والأعراق المختلفة، وترتاد بها الأمم ــ وقد كان ذلك فيما سبق ــ آفاق العلم والمعرفة والسبق الحضاري.

ولأنها كذلك، انفردت اللغة العربية عن غيرها من لغات العالم بحياة متصلة وحيوية دائمة تطوي القرون والمسافات، فتختصر أبعاد الزمان والمكان لتصل بين أقوام شتى في بلاد شتى، ولتربط الماضي البعيد بالحاضر المعيش حتى إن السلف ليتحدث إلى الخلف ــ وبينهم القرون ــ حديث المعاصر إلى معاصره، ذلك أنها لغة محفوظة بالقرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.. أما اللغات التي نزلت بها الكتب السماوية السابقة، فقد انحسر ظلها جميعا، وانزوت بعيدا، لئلا يبقى من اللغات التي نزل بها الوحي، إلا لغة حية واحدة، شاهدة بأن الإسلام هو الدين الخاتم الناسخ للأديان كلها.. لغة كونية لدين كوني..

وقد ورد في الأثر أن النبي ﷺ قال ما معناه : ليست العربية من أحدكم بأم ولا بأب، وإنما العربية اللسان.. من تكلم العربية فهو عربي.

وبخاصيتها هذه أتيح للغة العربية أن تسود العالم وتعلو على لغات الشعوب والأمم الأخرى، لتكون لغة الحضارة البشرية الأولى لحقب طويلة. فمنذ أن نزل بها القرآن، وقبل أن ينقضي قرن واحد «أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية (...) وفي القرن الثالث الهجري تحولت إليها كل أعمال الدين والدواوين ثم كتبت بها (بحروفها) اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والايجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو»[1].

وعلى ما كان من عداء المستشرق أرنست رينان للإسلام، فقد صدع بهذه الحقيقة مستغربا شاكيا : «إن أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره : انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة

غير معروفة بادىء ذي بدء، فبدأت في غاية الكمال سلسة أي سلاسة غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة محكمة، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى. ومن أغرب المدهشات أن نبتت تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، نبتت في وسط الصحاري عند أمة من الرحل. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم. ومن يوم علمت ظهرت لنا في أطوار حياتها لا طفولة لها ولا شيخوخة، ولا تكاد تعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى. ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة»[2].

ويتلمس جان وسيمون لاكوتير سر انتشار اللغة العربية وعظمتها حين يقولان : «العربية ليست عرقا ولا وطنا ولا شعبا، وإنما هي لغة برزت مسلحة بكتاب عظيم مقدس، يتلوه الناس...»[3].

إن لغة هذا شأنها «ليست بلغة إخضاع واستلحاق، وإنما هي لغة تكون الناس وتحررهم»[4]. وبذلك كانت طريقها إلى افريقيا سالكة، قبل أن تعترض سبيلها لغات ولدت بعدها بقرون وانتشرت بحد السيف.

لغة افريقيا الأولى

لا يجد بعض الكتاب الأفارقة أي حرج في وصف «المجتمعات الإفريقية التقليدية» بأنها «هشة ثقافيا ممزقة»[5].. وفي ذلك بعض الحقيقة. فبالنظر إلى عدد اللغات واللهجات المنطوقة في افريقيا، لا نكاد نجد أساسا ثقافيا للوحدة الإفريقية التي ينادي بها الساسة والمثقفون».

فهناك أكثر من 600 لغة يتحدثها سكان القارة، فضلا عن آلاف اللهجات التي لا يتكلمها أحيانا إلا مجموعات صغيرة تحسب بالمئات[6].

ولنشر على سبيل المثال إلى 350 لغة في زايير، بينها 4 لغات فقط يتحدثها عدد كبير من سكان البلد : السواحيلي ولينغالا Lingala والكيكونغو Ki-kongo وتشيليبا Tshiluba[7].

وفي غانا تم إحصاء ما بين 47 و62 لغة وأكثر من 800 لهجة. وهناك 150 لغة صغيرة في نيجيريا، و72 لغة في ساحل العاج و62 لغة في الكاميرون[8].

إن هذا الواقع يؤكد الحاجة إلى لغة أو لغات كبرى تجمع الشتات وتمد جسور الخطاب والتواصل الثقافي بين المجموعات العرقية واللغوية، المختلفة. وقبل أن تتطلع اللغات الغربية إلى هذا الدور وتحاول انتزاعه كانت اللغة العربية قد تبوأت بجدارة، مكانة اللغة الأولى، الموحدة الجامعة، في عدد كبير من أقطار افريقيا. وتم لها ذلك بسيرورتها المباشرة وانتشارها الكبير في القارة، ثم بإسهامها الخاص في تكوين اللغات الإفريقية الكبرى وتنميتها ورعايتها رعاية الأم الحنون.

ولا يهمنا في هذا المقام أن نتتبع الجذور البعيدة لحضور اللغة العربية في افريقيا، سواء من خلال تاريخ السلالات اللغوية الكبرى والرحم التي تجمع بينها وبين الامهرية (الحبشية) مثلا، أو من خلال الاقتراض المتبادل، لمفردات اللغة، وما كان للتجارة من دور في التواصل الثقافي في عهود سحيقة. إنما يهمنا هنا موقع اللغة العربية الذي كان لها بعد أن نزل بها الوحي وشرفت بحمل رسالة الله إلى الناس جميعا. فقد كان ظهور الإسلام مولد اللغة العربية الأكبر، وبه كان لها أن تخرج حدود الجزيرة العربية لغة تلم شتات الشعوب والأمم.

لقد هاجر العرب إلى افريقيا فاتحين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ر) فكان فتح مصر ثم كان فتح إفريقية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ر) ثم توالت الفتوحات لتصل، ولما يمض قرن على فتح مصر، إلى تخوم بلاد السودان. وسرعان ما تحولت الشعوب والقبائل التي تقطن شمال افريقيا

وجزءا من شرقها وغربها إلى شعوب مستعربة، اتخذت اللغة العربية، لا لغة عبادة فحسب وإنما لغة خطاب وتواصل في شئون الحياة كلها.. وكانت تلك إحدى معجزات اللغة العربية بحق، فما كتب للغة من لغات الأمم الأخرى أن تسود وتنتشر بهذه السرعة، وما حظيت لغة من لغات الأمم الأخرى بالحب والترحاب الذي حظيت به اللغة العربية في مواطنها الجديدة.. والملمون بتاريخ افريقيا يدركون أن حجم هجرة العرب ــ ولم يكونوا كثرة إذ ذاك ــ غير كاف لتحقيق الانقلاب الثقافي الكبير الذي حصل في المنطقة، فلا عددهم كان أربى من عدد الأقوام الذين عمروا الأرض قبلهم، ولا هم عمدوا إلى إبادة هؤلاء، لينفردوا بالأرض دونهم، ولم يكونوا يحملون الناس على العربية بالسيف حتى يتحدثوا بها حديث الأقحاح من أبنائها وينسلخوا من لغات آبائهم وأجدادهم؛ بل إن ما حدث كان تعربا جماعيا طوعيا مدفوعا بحرارة الإيمان معززا بالألفة الحميمة في ظل الإسلام بين العرب وغيرهم من الأقوام والشعوب.

وبهذا الانقلاب الثقافي الكبير ــ وليس بالهجرات البشرية وحدها ــ أصبحت افريقيا موطن جل العرب اليوم، فثلاثة أرباع العرب ــ تقريبا ــ أفارقة، ونحو 28% من الأفارقة عرب. ويشغل الوطن العربي اليوم مساحة 13,700,000 كم^2، منها3,500,000 كم^2 فقط في آسيا. وبذلك أصبحت اللغة العربية أكبر اللغات وأوسعها انتشارا في القارة.. ولم يفتأ موقعها يتعزز في ربوع افريقيا المسلمة غير العربية، حيث كانت لغة العبادة والإدارة والتجارة والحضارة بوجه عام.

وفي ذلك يقول توماس أرنولد : «إن اللغة العربية، وهي لغة الديانة الإسلامية، قد بلغت حدا يفوق كل وصف» فقد «أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية»[9]..

وقد نشط الأفارقة أنفسهم في نشر اللغة العربية وتعليمها ونشر المعارف بها، فلم يعتبروا ذات يوم ــ فيما قبل الاستعمار ــ أن نشر اللغة العربية شأن العرب دون غيرهم.. ولهذا انتشرت العربية حيث لا يوجد القحطانيون ولا العدنانيون، وفي مساحات واسعة من افريقيا ومن العالم.

ولعل مما يؤكد عمق حضور اللغة العربية في افريقيا خاصة أن نجد لها بصمات واضحة في لغات تتحدثها شعوب لا يشكل المسلمون منها إلا نسبة قليلة. فقد تناول عدد من الباحثين أثر اللغة العربية في اللغة الملغاشية. وجمع حلمي شعراوي نماذج مما كتب حول هذه العلاقة، معززة بمشاهدات ميدانية.

ولئن كان حضور المسلمين اليوم ضعيفا في جزيرة مدغشقر، إذ لا تتعدى نسبتهم 7,7% من السكان حسب بعض التقديرات، فإن الشواهد ما تزال قائمة على قوة حضور عتيد للغة العربية في الملغاشية.. وقد ذكر «أن أول حاكم فرنسي لقلعة فورت دوفين بالجنوب الملغاشي عام 1648 قد أدهشه استعمال الملغاشيين للعربية فكتب يقول : إن الملغاشية ترتبط كثيرا بالعربية، وقدم بهذا الانطباع قاموسه للملغاشية (1658م) وأن معاصرا له هو يوتوبي ذكر أن الملغاشيين يتحدثون العربية، وذكر آخرون (1722م) أن الملغاشية مشتقة من العربية بسبب التشابه الكبير الذي يلاحظونه بين اللغتين».

ويبدو تأثير اللغة العربية واضحا في مجالات عديدة منها :

- مصطلحات التجارة : الميزان ــ الكيس ــ وجاهة.
- أسماء أيام الأسبوع : السبتوس، الأحدي، الاتسينيني، الثلاثا، الأربعاء، الخميس،الزّوما.
- تسمية الأشهر الاثني عشر بالأسماء العربية للبروج الفلكية : الحمدي (الحمل)، اداورو (الثور)، الجاوز (الجوزاء)، أسورتاني (السرطان)، الهاساتي (الأسد)، أسنبلا (السنبلة)، أد ميزاني (الميزان)، ألكربا (العقرب)، ألكاسوي (القوس)، أديزدي (الجدي)، الدّلو (الدلو)، الحوتسي (الحوت).

كما تجد مفردات عربية مثل بلادي (بلاد)،

سكاني (سكان)، فازيري بي (وزير–حاكم)، مربي (مرآة)، سيكيلي (إشكال)، أرحاب (مرحبا)، كراما (كرامة)، بندقية، عبلي (عبد).

وتشهد تسمية الكتاب في الملغاشية بـ «كاتب» Katibo، على النشأة العربية للكتابة والثقافة القلمية في تلك البلاد.

وقد ظلت الملغاشية، قرونا طويلة، تكتب بالأبجدية العربية[10]. وإلى ذلك كان عطاء العربية موفورا فيما يسرت للغات الإسلامية الإفريقية الكبرى من أسباب النماء. ففي ظل الإسلام تكونت لغات إفريقية رضعت من لبان العربية.

اللغات الإفريقية الكبرى :

كان للإسلام الأثر البالغ في تنمية اللغات الإفريقية، وتيسير التواصل بين مجموعات كبيرة من أبناء القارة، ففي كنف الدين الحنيف تكونت وتنامت لغات جامعة، هي إلى اليوم، أوسع اللغات الإفريقية انتشارا وأرسخها قدما في تاريخ الإنسان الافريقي، وأعلقها بوجدانه، وأمكنها في حياته اليومية.

ولنضرب لذلك مثلا بست لغات كبرى هي السواحلية والهوسية والفلانية واليوروبية والماندنكية والولفية. فهي لغات تحمل كلها بصمة الإسلام ولغة القرآن، وتشترك في أنها لغات اتصال في أكثر من بلد افريقي، وإن كانت تتوزع أحيانا إلى لهجات تختلف من بلد إلى بلد.

ولننظر أولا في التوزيع الجغرافي للناطقين بهذه اللغات لنتبين مدى انتشارها :

– **فالسواحيلية** : لغة واسعة الانتشار في أقاليم تمتد من شرق افريقيا إلى غربها. فهي اللغة الوطنية الرسمية الوحيدة في تنزانيا التي يربو عدد سكانها على 27 مليون نسمة (تقديرات الأمم المتحدة لعام 1990). وكان لها دور أساسي في توحيد هذا البلد الذي أحصيت فيه 120 مجموعة لغوية، منذ أن قررت الحكومة سنة 1967 اعتبارها اللغة الوطنية الوحيدة. وهي اللغة الرسمية في أوغندا منذ سنة 1973 وفي كينيا منذ سنة 1974. وهي لغة منتشرة في زايير، وبها تصدر الصحافة هناك، وتتحدث الاذاعة، وبها تتحدث مجموعات بشرية في شرق الكونغو وزامبيا (روديسيا الشمالية سابقا)، وجزر القمر ومدغشقر وبعض سكان مقديشو. ولسعة انتشارها دعا الأديب النيجيري سوينكا Wolesoyinka إلى تعليمها في افريقيا كلها. (فهي تبدو اللغة الثانية للقارة بعد اللغة العربية).

وتدرس السواحيلية في 12 جامعة أوربية بفرنسا وألمانيا وبريطانيا وبولونيا وإيطاليا وهولندا ورومانيا والسويد وسويسرا[11].

– **والهوسا** :لغة اتصال منتشرة في نيجيريا والنيجر والكامرون، والسودان وغانا، وهي لغة قضاء وإدارة وتعليم في شمال نيجيريا. وتدرس في 10 مؤسسات جامعية أوربية بألمانيا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وبولونيا ورومانيا وسويسرا[12].

– **والفلانية** : لغة ذات لهجات تختلف تسمياتها باختلاف المناطق والشعوب التي تتحدثها، ومن أشهر تسمياتها الأخرى «البولارية» و «الفلفلدي» وبالفلانية على اختلاف لهجاتها تتحدث أقوام وشعوب كثيرة في غينيا والسنغال وسيراليون وغامبيا ومالي وبوركينافاسو (فولتا العليا) والنيجر ونيجيريا والكامرون وتشاد وموريتانيا، وغيرها؛ وهي تدرس في ثلاث جامعات بألمانيا وفرنسا وبريطانيا[13].

– **اليوروبية** : هي لغة اليوروبيين وهم واحدة من أكبر المجموعات البشرية بنيجيريا، ومنهم أقوام يوجدون في بنين وتوغو. ولئن لم تكن هذه اللغة منتشرة في مجموعة من بلدان افريقيا فإن عدد المتكلمين بها في نيجيريا وبنين يقدر بما يربو على 20 مليون شخص. وتتفرع هذه اللغة بدورها إلى لهجات كثيرة[14].

– **الماندينكية** MANDINGNE : لغة اتصال منتشرة في مالي وغينيا وساحل العاج والسنغال وغامبيا وسيراليون وليبيريا وغينيا بيساو وبوركينافاسو، وهي

ذات لهجات كثيرة منها البمبارا، وديانغرتي، وكالونغو، وكوغورو والمالنكية والبمبارية وديولا. وكانت في عهد إمبراطورية مالي، قديما، لغة إدارة وتجارة ويبلغ عدد الذين يتكلمون الماندينكية اليوم، بمختلف لهجاتها، أكثر من 5 ملايين شخص[15].

– **الولفية** : تنتشر الولفية، بشكل خاص في السنغال وغامبيا حيث تتحدث بها أغلبية السكان. وتكتسي أهميتها الخاصة، في سياق عملنا هذا من المكانة المتميزة للإسلام وثقافته في هذين البلدين، فضلا عن احتكاكها الخاص باللغة العربية بحكم الجوار مع موريتانيا. وتوجد في موريتانيا ذاتها مجموعة من الولوف الناطقين بهذه اللغة.

وهكذا يتبين أن اللغات الست المذكورة أعلاه تغطي أغلب مناطق القارة الإفريقية، وتحتل موقع الصدارة بين لغاتها، وسنعود إليها لغة لغة لنستطلع في إيجاز بعض مظاهر القرابة اللغوية بينها وبين العربية.

السواحيلية :

تختلف الآراء حول نشأة اللغة السواحيلية، ولكنها تكاد تجمع على أنها ثمرة امتزاج اللغة العربية ببعض لغات البانتو أو اللهجات الإفريقية التي كان يتحدث بها سكان شرق افريقيا. وكان للعرب، وهم يؤدون الأعمال التجارية والادارية في المنطقة، دور مشهود في نشر السواحيلية في أقاليم واسعة تمتد على طول الساحل الشرقي إلى موزمبيق جنوبا، وتذهب في عمق القارة غربا إلى منطقة كاتنغا في زايير. وكان طبيعيا أن تترك العربية آثارها في هذه اللغة التي ساهم العرب أنفسهم في نشرها. وتتفاوت الاحصاءات (أو التقديرات) بشأن نسبة المفردات ذات الأصول العربية في السواحيلية. فبينما نجد بعض الباحثين يحددون نسبا متدرجة من 20% في لغة التخاطب إلى 30% في السواحيلية المكتوبة إلى 30% في لغة الشعر السواحيلي القديم، نجد آخرين يميلون إلى الاقتصاد في التقدير، فيرجحون أن تكون نسبة 72,01% من مفردات السواحيلية مقتبسة من لغة البانتو، بينما تقتصر نسبة المفردات المقترضة من العربية على 22,09%. وهي – في واقع الأمر – نسبة كافية لتبيان قوة العلاقة بين اللغتين، خاصة إذا لاحظنا أن أثر اللغات الأخرى : الانجليزية والفارسية والبرتغالية والهندية مجتمعة لا يتعدى نسبة 6%.

ويمكن أن نسوق – تمثيلا – جملة من المفردات المقتبسة من العربية والعائدة إلى حقول وظيفية دلالية مختلفة :

دكان Duka، تاجر Mtajiri، مال Mali، غالي ghali، سوق soko، رخيص Rahisi، بيع (و) شراء biashara (تجارة)، عيب Aibu، اكرام Akram، عاشق Ashiki، خطيئة Hatia، حكايةHikaya، هبة Hiba، جلال Jalili، محكمة Mohakma، غفلة Ghafula، حق Haki، نعمة Neema، عابر Abiri، نفس Nafasi، ورقة Waraka، غرامه Gharama، غرفة Ghorofa، دواء madawa، نشاط Nishati، مادة maada، معقولات maakuli، عرس Arusi،سياسة siyasa، جمهورية Jamhuri، رئيس Raisi، رأس المال Rasilimali،جيش Jeshi، جماعة Jamii، تعريف Taarifa، طائفة Taifa، كاتب Katiba (بمعنى دستور)، تحقيق Hakiki، علامة Alama، ظن Dhana، ذهني Dhahania. وتوجد في السواحيلية كذلك أسماء بعض الأعداد مثل ستة وسبعة وتسعة والعقود من العشرين إلى التسعين، والمائة والألف، وكلمات مثل كما، ولكن، وحتى، وبلا، وقبل، وبعد، وبعض، وكل[16]...

الهوسية :

اقترضت الهوسية من اللغة العربية الفصيحة ومن اللهجات العربية الدارجة معا، تحت تأثير انتشار الاسلام وحركة التجارة في القارة.

وقد لاحظ الأستاذ عبد القادر بن الشيخ أن التشابه بين الهوسية والعربية لا يقف عند حد اقتراض المفردات، بل يتناول البنية الصرفية أيضا، وضرب لذلك من الأمثلة ما نحن موردون بعضه. فهناك شبه في بناء الفعل المضارع من الفعل الماضي. إذ تسبق

المضارع (المستقبل) الأداة الهوسية za الشبيهة بالأداة العربية (سـ). ويبنى المؤنث من المذكر بلاحقة تشبه نظيرتها في العربية. فاللاحقة iya - a في الهوسية تشبه اللاحقة ـة أو ـــ ية في العربية. مثال ذلك في الهوسيـة : Bahausha للمذكر ـــــ Bahaushsiya للمؤنث (بهوش ـــ بهوشية : هوسي ـــ هوسية)، mahaifi للأب و mahaifya للأم (والد ـــ والدة) majemi (دَبّاغ) ـــ majemiya (دباغة). وتشترك الهوسية أيضا مع العربية في البناء الجذري لكل منهما، حيث تشتق من الجذر الواحد مفردات كثيرة، تتعدد معانيها باختلاف الزيادات التي تطرأ على جذرها. وتستعمل الهوسية تضعيف حرف من الفعل لتقوية المعنى، كما يحدث في تضعيف عين الفعل العربي ففي نحو كسر ـــ كسّر نجد في الهوسيةkakkarye-karye (كري ـــ ككّري). وتوجد في الهوسية صيغتا جمع التكسير والجمع السالم. ومن بين اللواحق الدالة على الجمع لاحقة (أنَ una) الشبيهة بأداة جمع المذكر السالم في العربية (ـــ ون)،ففي نحو سركي (sarki) بمعنى رئيس نجد الجمع : سراك أون (sarak-una).

وتستخدم الهوسية السابقة : (مـ) على نحو ما تستخدمها العربية في بناء أسماء الآلة (بود Bude) بمعنى فتح بُنيت منها ma-budi بمعنى مفتاح)، والمكان (كرنتا karanta بمعنى قرأ ودرس، ومنها مكرنْتا ma-karanta بمعنى «مقرأ» = مـدرسة) والمصادر الميمية (فارَ fara بمعنى بدأ، منها : مفار ma-fari بمعنى مبدأ)، وكذلك يستخدم الميم في بناء اسمي الفاعل والمفعول في الهوسية، كما هو الشأن في العربية.

ويرى أحمد إبراهيم دياب أن الشعر الهوسي متأثر كثيرا بنموذج الشعر العربي. وفي اللغة الهوسية مفردات كثيرة مقترضة من اللغة العربية، فصيحها وعاميها. من ذلك على سبيل المثال : جاهل (في الهوسية جاهيلي)، قرأ (karanta)، الخلق (Halika) البصل (albasa) السكر (sukar) الصندل (sandal)، صابون (sabulu)، القبر (kabari) المجلس (majalisa) العادة (Al'ada)، الجمعة (Juma'a)، الأحد (lahadi)، القلم (Al kalami)، المقص (Al makashi)، الرصاص (Pharsashi)، اللؤلؤ (Lu'lu'u)، الكعك (Al kaki)، الخبـز (Alkhubuz)، الطاقيـة (Tagiya)، اللجـام (Linzami)، الحلاوة (alewa)، الكتـان (kittani)، الصندوق (sanduki)، البارود (Albarushi)، الفندق (Alfindiki)، الطاسة (tasa)[17].

الفلانية :

الفلانية هي ـــ كما ألمحنا إلى ذلك من قبل ـــ لغة واسعة الانتشار، تتعدد تسميـاتها (البولارية ـــ الفولفلدي ـــ الفلانية...الخ)، وتختلف لهجاتها من منطقة إلى منطقة. وهي لغة عريقة غنية، اختلف الباحثون، في تحديد أصلها، في نشأتها الأولى، اختلافا لا حاجة بنا للخوض فيه في هذا المقام. ويعتز الفلانيون بلغتهم هذه اعتزازا كبيرا، نلمس أثره عند الشيخ عبد الله فودي الذي قال إن على الفلانيين ألا يهجروا لغتهم أبدا، مؤكدا أن مثل من يهجر لغته ليعنى بلغة أخرى ـــ غير العربية ـــ مثل من يهمل والديه ويهتم بوالدي غيره.ويرى الشيخ عبد الله أن بين اللغتين الفلانية والعربية تشابها كبيرا. ويذهب في ذلك، بدءا، إلى أن مصطلح «الفلاته» الذي يطلق أيضا على الفلان (أو الفلانيين)، هو مصطلح عربي مشتق من الجذر العربي (فلت)، فهم قوم يفلتون، فينجون بأنفسهم عندما يرون ما يسوؤهم.

وقد نقل أحمد دياب عن الشيخ عبد الله قائمة تتضمن جزءا من رصيد المقترضات العربية في اللغة الفلانية، منها : مودبو (من العربية مؤدب)، دفتري (دفتر)، دواء، أفام (فهم)، سدم (سد)، قبري (القبر)، اسما (السماء)، فجري (الفجر)، حقي (الحق)، حسيدي (الحسود)، مصيبة (المصيبة)، سبابو (السبب)، است (السبت)، الت (الأحد)، التين (الاثنين)، تلاتا (الثلاثاء)، الربع (الأربعاء)، الخميسا

(الخميس)، هيبا (الهيبة)، إلا (العلة)، فايدا (الفائدة)، تاريخ، الرزق.

وتحدث الأستاذ أبوبكر خالد با عن أثر اللغة العربية في البولارية المنطوقة في منطقة فوتا بحوض نهر السنغال، موضحا أن للعربية تأثيرا مماثلا أو أكبر في لهجة سكان فوتا جاللو (غينيا). ومن المفردات العربية التي أوردها الأستاذ أبوبكر : أسماء أيام الأسبوع عدا السبت، وكلمات أخرى منها : أولا، آلا (من العربية : لا)، لاجل (الاجل)، أبدا، برص، بحر Baar (من بحر الشعر)، بيتي (بيت)، البنونا (البنون)، بورو (البوار)، تاريخ، تمّي (ثم)، سيّبو (ثيب)، جيبَ (جيب)، جماعة، جنايزا (جنازة)، جيبه (جيفه)، جدًّا، هيسا (حساب)، هكيكة (حقيقة)، هاجّو (حاجة)، هرمه (حرمه)، هرفير (حرف)، هار (حرب)، كبارو (خبر)، حمانو (زمان)، سترو (ستر)، سكرد (سكر)، سرّو (سر)، سردي (شرط)، سكّي (شكل) سديدا (شديدا)، عافية، عقيل Haqqille (عقل)، عيب Ayiiba (عيب)، فترا (فترة)، فتحُ (فتح)، فنُّ (فن)، فاتاد (فات)، قاولو (قوّال)،قربوس، كجالك (كذلك)، كلمي (كلمة)، كاس، لولو (لؤلؤ)، مُدُّ (مُدّ)، مرجنو (مرجان)، مصلحة، مرحبا، المالو (المال)، مسلا (مثلا)، نَعَمْ، نسمة (نعمه)، نفقة، وقت، هيمهْ (همة)، هَمُّ (همّ)، هلكاد (هلك)[18].

اليوروبية :

توصف اليوروبية بأنها «سلسلة من اللهجات المتواصلة والمتقاربة لغويا»، التي يبلغ عددها نحو عشرين لهجة. وتوحد لغة التعليم والكتابة بين مختلف هذه اللهجات. ويرى المؤرخون والباحثون أن اليوروبيين هم سلالات كنعانية نزحت من العراق قديما، أو صنهاجية نزحت من اليمن، قبل الإسلام بمئات السنين. وقد يبدو من الإمعان في التكلف الاستناد إلى تلك الأصول البعيدة المفترضة في البحث عن علاقات القربى بين اليوروبية واللغة العربية، فيما يتجه النظر ــ بادي الرأي ــ إلى ربط أي علاقة ذات شأن بدخول الإسلام بلاد اليوروبا، وهو حدث، يعيده المؤرخون إلى نشاط التجار ــ الدعاة، منذ نحو خمسة قرون فقط. وعلاوة على ذلك، ظل الإسلام في قبائل اليوروبا، محصورا في نطاق ضيق، ولم يتسع انتشاره إلا بعد أن أسس عثمان بن فودي (ت 1223 هـ) دولته وخاض جهاده، فهل تكون العلاقة بين اليوروبية والعربية محصورة في مساحة زمنية محدودة كهذه ؟

إن الباحثين يرون ــ على خلاف هذا التصور ــ أن في اليوروبية فئتين من المفردات العربية المقترضة : فئة جلبها الأسلاف معهم، في هجرتهم القديمة (قبل الإسلام) من بلاد العرب، وفئة حملها الإسلام معه قبل قرون قليلة أو أقل.

وقد أحصى د. إسحق أُو جنبيي، من الفئتين مئات المفردات التي تغطي حقول الحياة المختلفة، مصنفة في 7 أبواب : 1 – الدين، 2 – الأخلاق، 3 – القراءة والكتابة والتربية والزمن، 4 – الصفات البشرية : المزايا والعيوب، 5 – أعضاء الجسم، 7 – شئون المنزل، 8 – مجالات أخرى.

وسنكتفي بإيراد نماذج من بعض الحقول : الكاواني (من العربية : القوانين) بمعنى قول الحق، هكيكه (حقيقة)، مكرو (مكر)، مرابا (مرحبا)، سبب، البوسه (البصل)، أسارُ (خسارة)، جناء (جماعة)، سكني (سكن)، ألماني (المال)، أرا (الربح)، فدك (فضة)، ألمس (الخميس)، جمو (الجمعة)، ستيد (السبت)، ساء (ساعة)، وكتي (وقت)، إمُو (علم)، ألافيا (العافية)، ألابو (العيب)، لدبي (الأدب)، وهله (وهلة)، أوجو (وجه)، أري (رأس)، أبرو (ابرة)، أصن (حصان)، قاص (كأس)، أومي (ماء)، دَبِرَ (دبّر)، سما (سماء) آني (أعني)، إيال (عيال)[19].

الماندنكية :

تنقسم الماندنكية إلى لهجات عديدة تتكلمها

شعوب شتى في عدد من الأقطار الإفريقية. وفي جميع تلك اللهجات التي تتحدثها شعوب مسلمة نجد أثر اللغة العربية على جانب من الوضوح.

ومن أبرز لهجات الماندنكية : البمبارية المنتشرة في مالي. وقد تحدث دمستر Gerard Dumestre في بحث مستقل عن الألفاظ البمبارية المقترضة من اللغة العربية، فأحصى منها نحو 375 مفردة. وتناول الأستاذ عبد الله بالدي، في بحث خاص، أثر اللغة العربية في الماندنكية المنطوقة في بعض مناطق السنغال، موزعة بين مجالات مختلفة. 1 – الدين والتربية، 2 – السياسة والقانون والحياة المدنية، 3 – الأماكن والأشياء، 4 – الأيام والأوقات، 5 – ألفاظ أخرى.

ومن المفردات التي ساقها نختار العينة النموذجية التالية :

حقي (من العربية : الحق)، حرامو (احترام)، حينو (حزن)، كتاب، آفية (عافية)، حاجو (حاجة)، كاكيلي (عقل)، خيرا (خير)، نآم (نعم)، سُتُّره (سترة)، آده (عادة)، دارجه (درجة)، جمان (زمان)، سَبَبُ (سبب)، سيره (سيرة)، با (بحر)، كافورا (كافور)، سُكَرُ (سكر)، تمار (تمر)،واتي (وقت)، صوبا (صبح)، أبَدَا (أبدا)، واقترضت الماندنكية جميع أسماء أيام الأسبوع. وقد أثرت العربية في النظام الصوتي للمندنكية فدخلها صوت القاف مع مفردات عربية مثل : (قبر)، واتضح صوت الحاء كما في نحو (حق، حينو)[20].

الولفية :

ليست الولفية من أوسع اللغات الإفريقية انتشارا في المساحة، أو في عدد الناطقين بها، لكن الولوف المتحدثين بها يعتبرون من أعرق الشعوب الإفريقية في الإسلام، وأعظمهم إسهاما في الثقافة العربية الإسلامية. والولفية هي اللغة الكبرى ــ ولغة الاتصال ــ في السنغال؛ ومن أهمية هذا البلد في افريقيا تكتسب هذه اللغة بعض أهميتها أيضا.

وقد أسلفنا الإشارة إلى حديث الشيخ إبراهيم نياس الكولخي عن المنزلة التي اكتسبتها اللغة الولفية بفضل الإسلام.

وليست لدينا معلومات أكيدة حول نشأة الولفية، إلا أن بعض السنغاليين يرى أنها نشأت قبل قرون في عهد أمير قوي، يدعى انداديان انجاي، تقول هذه الرواية أنه ينحدر من سلالة أمير المرابطين أبي بكر بن عامر اللمتوني من زوجة له إفريقية، وأن هذا الأمير (انداديان) سعى لتوحيد لهجات إفريقية كثيرة في لغة واحدة، ذات جذور عربية أيضا، فكانت الولفية، وكان نحو نصفها من مفردات ذات أصل عربي، إلا أن تحريفا كبيرا أدرك جلها[21].

ولئن كان من الصعب ــ أولا ــ الجزم بنشوء لغة معينة في عهد رجل معين، و ــ ثانيا ــ إثبات علاقة تكون بها الولفية فرعا، على هذا النحو، من العربية، فإن ثمة صلات ذات شأن لا يجد الباحث صعوبة في اكتشافها وإثباتها.

وقد اهتم عدد من الباحثين السنغاليين بتتبع أثر اللغة العربية في الولفية، فكان ذلك من اهتمامات الباحث الكبير الشيخ آنتا ديوب الذي تحمل جامعة دكار إسمه، والأستاذ ساليو كانجي الذي يرى أن اللغة العربية تركت في الولفية ــ وفي البولارية ــ أثراً بينا، أجمله في عدة نقاط منها :

– تثبيت البنية النحوية للغتين وتهذيبها؛

– إغناء اللغتين بالمفردات، وزيادة دقتها في التعبير؛

– تنمية طاقة اللغتين البلاغية، باستعمال المجاز اللغوي، والتنوع في طرائق تركيب الكلام؛

– وضع سلسلة من المصطلحات، النحوية والقانونية والفلسفية، والكلامية والغيبية...الخ، التي استقرت في تينك اللغتين.

وقد أورد الأستاذ كانجي قائمة من المفردات ذات المنبت العربي، موضحا أنها من أكثر المفردات شيوعا في الولفية، ومنها نجتزىء العينة التالية :

آجو (حاجَة)، آدّينا (الدنيا)، آدّيه (هدية)، آلكو (هالك)، أرف (حرف)، السمان (السماء)، اللوا (اللوح)، أيب (عيب)، بايمه (بهيمة)، دابّه، درجة، فات (وفاة)، فايده، جيبَ (جيب)، كسارا (خساره)، لرّ (ضرّ)، مرتبا (مرتبة)، نآم (نعم)، نُوذْ (نداء)، رايه، سك (شك)، صوبا (صبح)، سُتُرَا (ستْرَة)، تفلي (تفل)، خلم (قلم)، خيمه، وخت (وقت)[22].

وقد نشر محمد مختار سيسي مقالة في «اللسان العربي»[23] حول (تأثير اللغة العربية في افريقيا)، عرض فيها المفردات العربية في اللغة الولفية، فأحصى عددا نورد منه الكلمات الإضافية التالية : أنَ (أين)، بطاقل (بطاقة)، براده (برّاد)، بغل، جالاب (جلباب)، جوّ،چافران (زعفران)، جمن (زمن)، خر (خروف)، دائما، در (درع)، درم (درهم)، سجادة، سطل، كأس، لغة، مصلا (مصلحة)، ناغه (ناقة).

تلك بعض الشواهد القائمة : على رحم ــ ماتّة أحيانا ــ بين اللغة العربية واللغات الإفريقية وقد أوردنا قائمة المفردات المذكورة، لمجرد الاستشهاد، إذ ليست بضع عشرات من الكلمات كافية، لإثبات علاقة ذات شأن، فللعربية في اللغات الأوربية آلاف من المفردات(*)، فما بالك باللغات التي وُلِدَت، ــ أو بعضها ــ من رحم العربية، منصهرة بلغات أخرى، أو كان لها في العربية غذاء استمدت منه بعض أسباب النماء.

وقد سلكنا مسلك مصادرنا أحيانا في إيراد المفردة الإفريقية مكتوبة بالحرف اللاتيني، بينما اكتفينا في حالات أخرى بكتابتها ــ مشكولة حيث تأتي ذلك ــ بالحروف العربية. ولم نعن بإيراد المعنى الدقيق للمفردة المقترضة في مستقرها اللغوي الجديد، فلئن كانت بعض المفردات تكتسب في اللغات الافريقية دلالات مغايرة ــ بعض الشيء ــ لدلالاتها الأصلية في العربية، فإن جل المفردات تحتفظ بمدلولها الأصلي أو ببعض فروعه القريبة. ومن المعلوم أن المفردة قد تتضمن صوتا عربيا لا وجود له في اللغة الإفريقية المقترضة. وفي هذه الحالة قد تكتب المفردة الإفريقية على نحو ما يكتب أصلها، إلا أن صوت الحرف العربي يعوض بصوت افريقي قريب منه : مثل نطق القاف كافا فارسية (أو جيما مصرية) أو نطق العين همزة...الخ.

وقد تجنبنا في جميع النماذج التي أوردناها قاموس المفردات الدينية، فمن الطبيعي أن تكون كل أو جل الألفاظ المتعلقة بشعائر الإسلام ومفاهيمه الخالصة مستمدة من العربية. وهذا باب واسع يكفي

(*) نسوق ــ تأكيدا لذلك هذه المعطيات المستقاة من بحثي د. مناف مهدي الموسوي (المعرب و الدخيل في اللغة العربية) ومحمد السيد علي بلاسي (اللغة العربية بين التأثر والتأثير). وهما منشوران في مجلة اللسان العربي (عدد 34 ــ 1411/1410 هـ ــ 1990 م). ففي الانجليزية عدد كبير من المفردات العربية، أحصى منها الباحثان جيمس بيتر وحبيب سلوم نحو 2500 كلمة. وتعقب الدكتور فيليب حتي الألفاظ الانجليزية ذات الأصل العربي، فبلغت عنده خمسة آلاف كلمة اعتمدتها مؤسسة وبستر Webester الأمريكية في معجمها.

ويقدر بيير جيرو في كتاب les mots étrangers من سلسلة que sais-je ? عدد المفردات العربية في اللغة الفرنسية بنحو 280 كلمة. وذكرت زيغريد هونكة نحو ذلك من المفردات العربية في اللغة الألمانية، وذلك في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» (هكذا عرّب عنوانه وهو بالفرنسية (Le soleil d'Allah brille sur l'occident).

ويقدر دوزي عدد المفردات العربية في الإسبانية والبرتغالية بما يربو على 1500 كلمة. وقد صنفت كتب ونشرت بحوث كثيرة حول أثر اللغة العربية في مجموعة أخرى من اللغات الأوروبية، وغيرها من لغات العالم.

أصل نشأة اللغة بين القدامى والمحدثين
دراسة وصفية تحليلية

د. زيان أحمد الحاج ابراهيم
جامعة البحرين ـــ كلية الآداب

شهدت العقود الثلاثة[1] الأخيرة من القرن الحالي ثورة علمية، وقفزات واسعة في شتى ميادين العلوم المختلفة، وفي طليعتها العلوم الطبيعية كالرياضيات، والفلك، وعلوم الفضاء، والطب، وغيرها من العلوم الرياضية.

أما العلوم الإنسانية فقد كانت أثقل خُطىً، وأبطأ سرعة، لأنها، كما يبدو، أقل تأثيراً في مسيرة الحياة الإنسانية، فكان لابد أن تأتي في مرحلة أدنى من العناية والاهتمام.

وهذا لا يعني أنها كانت متأخرة مطلقا، لا تواكب، ولو بصورة نسبية، هذا التطور السريع، فقد ظهرت نظريات واختفت أخرى، كانت تعد من المسلمات.

وكان من أكثر العلوم الإنسانية تأثرا بهذه القفزات العلمية ميدان تعليم اللغات، إذ أصبح المختبر اللغوي ركيزة أساسية لا غنى عنها في تدريس اللغات ومعالجتها.

ويمكن القول بأن الدراسات اللغوية قد اتسعت لتشمل مجالات كثيرة، مثل دراسة الأصوات، والنظر في بنية الكلمة مفردة ومركبة، واختلاف دلالتها في الإفراد والتركيب، والبحث في نشأة اللغة الإنسانية، وعلاقتها بالمجتمع الإنساني والنفس البشرية، ثم نصيبها من الحياة والتطور، وقدرتها على الغلبة والاستمرار، وقابليتها للتقهقر والاندثار، إلى غير ذلك من مباحث علم اللغة.

وعند إطلاق القول على علم اللغة، فإنه لا يقتصر على لغة معينة، بل يقصد به ذلك العلم الذي يتناول اللغة الإنسانية الأولى، لا اللغة العربية وحدها، كما قد يتبادر إلى الذهن، إذ إن بين اللغات خصائص جوهرية عامة، وأصولا مشتركة تجمع بينها طبيعة هذه اللغات، ومن ثم يحاول هذا العلم اكتشاف أصولها ومتابعة نموها وتطورها، بغية الوقوف على المعايير العامة التي تحكمها.

وجدير بالذكر أن الاهتمام باللغة ودراستها مرده إلى أهميتها، إذ بوساطتها ينتقل ما نشاهد وما نسمع إلى الذهن عن طريق الكتابة أو اللفظ، وعن طريقها نتلقى أفكار ومشاعر وخواطر الآخرين، وإليهم ننقلها بها منا، فهي حلقة الوصل بين الناس، بل بين الأجيال السابقة واللاحقة. وباختصار، فهي وسيلة الاتصال بين الحياة والفكر، والعامل الفعال في رقيهما.

ولولا اللغة لوجدت البشرية عنتا لا نستطيع تصوره مهما استخدمت الاشارات والتصوير والرموز، فهذه كلها دون اللغة في الأداء لقصورها عن التعبير والارتقاء بالإنسانية. وقد أجمل ابن جني وظيفة اللغة حينما حدها بقوله : «إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[2].

ومن المجالات التي توفر العلماء على دراستها قديما وحديثا، نشأة اللغة الإنسانية وأصل تكوينها،

لغات مكتوبة. وقد دعم التعريب شخصية هذه اللغات ومكنها أن تنمو وتشع، كما يشهد بذلك الأدب الإسلامي الناطق باللغات الإفريقية».

ويلجأ أحمد إبراهيم دياب[25] إلى المقارنة، فيقول أنه في «الجزء الأكبر من القارة الإفريقية، ليس للغات الأوروبية أثر في اللغات الإفريقية يستحق الذكر، مقارنة بالأثر العربي».

ويُجمل فينسان مونتي[26] أثر العربية في اللغات الإفريقية فيرده إلى أوجه منها :

1 – تثبيت اللغات الإفريقية بالكتابة،

2 – إغناؤها بالمفردات العامة،

3 –وبمفردات الأشياء خاصة.

ومن المؤكد أن الحرف العربي يشكل ــ أكثر من المفردة العربية ــ الأثر الأكبر والأبرز للغة العربية في اللغات الإفريقية، إلا أن للحديث عن هذا الأثر شجونا آثرنا أن نفرغ لها في مبحث مستقل.

على أن أثر العربية لم يكن ليقتصر على الحرف والكلمة، فبقدر ما كان الحرف والكلمة وعاء للثقافة، كان أثر العربية واسعا في شتى مناحي الحياة الثقافية والحضارية للشعوب الإفريقية.

وقد كانت العربية في خدمة القارة الإفريقية قبل أن تتداخل الشعوب ويسود الإسلام في مواطنه الجديدة وتتفاعل العربية مع لغات الأفارقة، فمنذ انتشار الإسلام في شمال افريقيا أخذ العرب يستكشفون القارة ويدونون سماعاتهم عنها ومشاهداتهم فيها بقدر كبير من الأمانة. وغطت كتابات العرب قرونا عديدة من تاريخ افريقيا قبل الإسلام وفي ظله.

وهكذا قبل أن يصل الأوربيون إلى الشواطىء الإفريقية ليسترقوا أبناء القارة ويدونوا تقارير استخبارية ومذكرات عن شعوبها كان التجار والرحالة العرب قد جابوا مناطق واسعة من افريقيا واستوطنوها وصاهروا أهلها، وكتبوا عنها ما لولاه لكادت أن تكون قارة بدون تاريخ مكتوب. ولن يجد الباحث في تاريخ القارة اليوم مصادر أهم من تلك التي تركها العرب، أو المستعربون من أبناء إفريقيا، مثل المسعودي وابن حوقل والبكري والإدريسي وأبي الفداء والعمري وابن بطوطة وابن خلدون، والحسن الوزان (ليو الافريقي) ومحمود كاتي والسعدي..

وفي ذلك يقول كي زربو : أن المثقفين العرب، الجغرافيين والمؤرخين، قدموا لافريقيا خدمة لا تقدر بثمن، إذ عرفوا كتابيا بالإنجازات الإجتماعية السياسية لبلاد السودان إلى حد أننا قد نأسف لكونهم [العرب] لم يصلوا [إلى القارة] قبل الوقت الذي وصلوا فيه[27].

وحسبنا أن نشير ــ تبعا للدكتور أحمد إلياس ــ إلى بعض المصادر العربية التي تحدثت عن افريقيا فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (9 –12 م)، ففي القرن الثالث الهجري نجد اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 284 هـ/897 م) يكتب في تاريخه عن الطرق الصحراوية والنشاط التجاري والممالك القائمة في القارة، مثل غانة وكانم ومالي وكوكو. وكذلك نجد معلومات عن ممالك القارة وبلدانها ومجموعاتها البشرية ونشاطها لدى ابن الفقيه، أبي بكر أحمد إبراهيم (ت 290 هـ/903 م) في كتابه «البلدان»، والخوارزمي أبي جعفر محمد بن موسى (ت حوالي 272 هـ/885 م) في كتابه «صورة الأرض»، وابن الصغير المالكسي (ق 3 هـ) في كتابه «تاريخ أئمة الدولة الرستمية».

وفي القرن الرابع الهجري يكتب آخرون عن افريقيا، مثل ابن حوقل، أبي القاسم محمد (ت بعد 367 هـ/977 م) في كتابه «صورة الأرض»، والبلخي أبي زيد أحمد بن سهل (أوائل ق 4 هـ) في كتابه «صورة الأقاليم»، والأصطخري أبي إسحق محمد بن إبراهيم (النصف الأول من ق 4 هـ) في كتابه المسمى «مسالك الممالك» أو «كتاب الأقاليم»، والمسعودي أبي حسن علي بن الحسين (ت 346 هـ/957 م) في كتب منها «مروج الذهب»، والمقدسي أبي عبد الله

محمد بن أبي بكر (ت 390 هـ/999 م) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

وفي القرن الخامس الهجري تحدث البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ) عن بلاد افريقيا ـــ في كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، وكذلك البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440 هـ/1048 م) في كتابه «صفة المعمورة»، والمنجم إسحق بن الحسين (ت آخر ق 5 هـ) في كتابه «آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان».

وفي القرن السادس الهجري : «الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 560 هـ/1164 م) في كتابه : «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» و «أنس المهج وروض الفرح»، وأبو حامد الغرناطي، أبو عبد الله محمد عبد الرحيم بن سليمان الأندلسي (ت 565 هـ/1170 م) في بعض كتبه، مثل مخطوطته التي تحمل نسخة منها عنوان «عجائب البلدان»، وتحمل نسخة أخرى عنوان «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب».

وقد وصلتنا كتب أخرى تتحدث عن بلدان القارة، جنوب الصحراء، مثل الكتاب المعروف ب «جغرافية المامون»، وهو ـــ فيما يبدو ـــ كتاب أعده علماء في عصر الخليفة العباسي المأمون (ت 218 هـ) وأضيفت إليه مواد في العصور اللاحقة. وكذلك «كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول ويبدو أنه كان في خدمة الموحدين وعاصر أبا يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (ت 595 هـ). وهناك كتب متقدمة لم تصلنا، وإن نقل عنها بعض من وصلتنا أعمالهم. ومن تلك الكتب المفقودة : «كتاب المسالك والممالك» لأحمد بن محمد الرازي (ت 344 هـ/955 م) «وكتاب مسالك افريقيا وممالكها» لأبي عبد الله محمد بن يوسف (ت 362 هـ/973 م)، و «المسالك والممالك» للحسن ابن أحمد المهلب (ت 380 هـ/990 م)[28].

والحق أن العرب حين وصلوا لم يكونوا مجرد حفظة تاريخ بل كانوا حملة رسالة سماوية ذات مشروع حضاري كبير في إصلاح المجتمعات وعمران الأرض، وعبادة الله دون غيره. ولم يتفرد العرب بحمل لواء هذه الدعوة إلا ريثما يلتحق بهم دعاة أفارقة جدد تشربت قلوبهم رسالة الإيمان وتشبعتْ بقيم الدين الجديد، فقامت على أيدي هؤلاء وأولئك من دعاة الإسلام الناطقين بلغته دعائم مجتمع جديد ينمو حضاريا من غير إكراه ولا استلاب.

لنتأمل هذه الفقرة من تقرير عرض على مجلس العموم البريطاني في سنة 1802 م : «منذ سبعين عاما استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في الشمال من سيراليون وفتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد (ﷺ) وجروا على عادة المسلمين في عدم بيع أبنائهم بيع الرقيق. وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن وجلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة. وقد تمتع المتعلمون بكثير من الإحترام ثم أصبحوا معلمين يبجلهم الناس»[29]...

لقد أدرك الانجليز هذه الحقائق ولم يفت غيرهم من المستكشفين الإستعماريين الأوَل أن يلاحظوا أن القبائل والشعوب الإفريقية التي وصلها الإسلام، وانتشرت فيها اللغة العربية، قد تحررت من بدائية المجتمع الافريقي، وتهذبت طباعها وارتقت آدابها، وأخذت من المدنيّة ومن عطاء الحضارة بقسط وافر.. وقد رأينا من قبل أن أهم الدول والممالك التي قامت في افريقيا هي تلك التي قامت على الإسلام أو استندت إليه. وكانت اللغة العربية لغة الإدارة والمراسلات في هذه الممالك، كما كانت في حالات كثيرة لغة الحضارة كتابة وفكرا وصناعة وإبداعا.

وفي ذلك يقول إيبادير تيام ـــ وهو وزير تربية سابق وأحد كبار المثقفين في السنغال ـــ أنه «بفضل اللغة العربية كان لنا (الأفارقة) في العصور الحديثة شعراء منا وكتاب وفلاسفة ومفكرون وموسيقيون

ملحنون، وأخلاقيون، وتربويون، ومصلحون، ودبلوماسيون،واقتصاديون، ومعماريون، ومهندسون، ولغويون، وحقوقيون، وكيميائيون وفيزيائيون وعلماء فلك. وباختصار كان لنا بعض من أوائل باحثينا وأوائل شخصياتنا ذات القيمة الإنسانية الكبيرة، ممن لا يغبطون ليوناردو دافنشي وأمثاله بشيء[30].

كذلك كانت العربية ـــ كما يقول فينسان مونتي (الذي أسلم وتسمى منصور الشافعي) ـــ «أداة لنقل الحضارة الإفريقية»، بل إننا نذهب أبعد من ذلك إلى أنها كانت أداة لصنع الحضارة. كذلك كانت بالفعل، وكذلك ارتسمت صورتها في الذاكرة الشعبية الإفريقية ؛ ومن المفارقات الدالة أن نجد كلمة «عربي» تطلق في بعض البلاد العربية (تونس مثلا) صفة لما هو تقليدي وغير حديث من المصنوعات وأشياء الحضارة المادية (وهو استعمال جديد طبعا)، بينما نجد كلمة Ustaarabou (استعراب) في لغة الهوسا، حاملة لمدلولات مثل الحضارة والثقافة.

وقد كان الاستعراب فعلا طريق الشعوب الإفريقية لاكتساب قيم حضارية جديدة وصوغ قيم أخرى وتنميتها، في تفاعل وتكامل، لتكتمل بذلك كل شخصية إفريقية مستنيرة، غير مسخ، فتتحدد ملامحها على نحو أفضل، ويتسع إسهامها في الحضارة البشرية.

ولقد كان للأفارقة المستعربين شأن كبير في صناعة التاريخ العربي الإسلامي، وبلورة الصيغة المتكاملة لحضارة جديدة كانت العربية لغتها، ولم يكن العرب وحدهم بناتها، بل شارك فيها الأفارقة المسلمون كما شارك مسلمون آخرون تعربوا من شعوب آسيا المختلفة.

وبحسب المرء أن ينظر في كتب تاريخ افريقيا، مثل تاريخ السودان للسعدي، والفتاش لمحمود كاتي، وفتح الشكور للبرتلي ليطلع على أسماء كثرة من العلماء الأفارقة الذين تعربوا فكان عطاؤهم للعربية وأهلها موفورا، على مر العصور.

إن الصيت الذائع والذكر الشائع لعلماء أجلاء مثل الشيخ عمر الفوتي والشيخ عثمان بن فودي، والشيخ إبراهيم نياس الكولخي، والشيخ أحمد بمبا والحاج مالك سي، وآخرين من أضرابهم، هو شهادة حية على العطاء الثر الذي قدمه علماء إفريقيا للغة العربية والثقافة الإسلامية، علماء، مربين، معلمين وشعراء، ومجاهدين.

وقد ترك الشيخ إبراهيم نياس وحده أكثر من 70 كتابا طبع منها عدد هام وانتفع به الناس في مجالات شتى كالفقه، وعلوم اللغة العربية، والتصوف.

وكانت فتوى هذا الشيخ الجليل مرجعا قيّماً أخذت به السلطات السعودية من الإبقاء على مقام إبراهيم بالبيت الحرام في موقعه، بعد أن فكر حينا في نقله.

وبمبادرة من الشيخ إبراهيم انتظم في أعماق السنغال، بمدينة كولخ، مهرجان لم يتخلف منذ نحو 50 سنة عن موعده السنوي (ذكرى المولد النبوي الشريف) وهو يبدو المهرجان الدوري الأكبر ـــ وربما الوحيد ـــ للشعر الموريتاني لكثرة الشعراء الموريتانيين الذين يشاركون فيه كل عام. ولعله مهرجان الشعر العربي الأكثر جمهورا، إذ يحضره ويتابع وقائعه عشرات آلاف الأشخاص يجتمعون في الساحة التي تؤويه وتغص بهم الشوارع المجاورة لها.

وكان لهذا المهرجان حضوره الغيّب، في سنوات القطيعة بين السنغال وموريتانيا، حيث كانت القصائد ترسل من موريتانيا وتقرأ بالنيابة في السنغال.

وفي سنة 1412 هـ صدر ديوان «العرف الذكي» للأستاذ محمد يحيى بن خيري. وهو من نوادر دواوين المديح النبوي المنشورة في موريتانيا. وقد تكرم صاحب الديوان فأهداني نسخة منه، وقال : إنه محاولة للتعويض عن مواسم «مدينة» (وهي علم على حاضرة الشيخ إبراهيم نياس). فكانت «مدينة» ملهمة في الحضور والغياب. وكان المهرجان متصلا أيام القطيعة.

وقد لاحظت مجلة العربي الكويتية[31] أن حاضرة الشيخ إبراهيم نياس تعربت كليا، حيث لا يوجد فيها من لا يتحدث العربية الفصحى أو الحسانية وهي اللهجة العامية العربية في موريتانيا.

وقد خصص الدكتور عامر صمب كتابا من مجلدين للأدب العربي في السنغال وحدها، أحصى فيه عشرات الشعراء، وقدم نماذج من إنتاجهم الأدبي، فكان فيها شذرات كثيرة مضيئة، مما يحق للأفارقة المستعربين أن يباهوا به العرب العاربة.

وكان عطاء أولئك عطاء إفريقيا للحضارة العربية. ومن قبل كانت اللغة العربية ذاتها قد أخذت من اللغات الإفريقية، ولم تكن أبدا ــ على ما انفردت به من قدسية الوحي الذي نزل بها ــ لغة تعطي عن استعلاء وترفض أن تأخذ.

ولو صح ما ذهب إليه عدد من العلماء الأجلاء من احتواء القرآن على لغات عديدة غير عربية، لوجدنا القرآن يشرع علاقة التداخل والتبادل تلك تشريعا ما وراءه وراء. ونحن لا نرى كبير حرج في أن يتضمن القرآن مفردات حبشية المنبع، أو يونانية، أو عبرية، فمن شأن الكلمة أن تصطبغ بهوية مستقرها الجديد، حتى وإن كانت أجنبية المنبت. والقرآن الكريم ــ فوق ذلك ــ مصدر للتشريع اللغوي كما هو مصدر للتشريع الديني. ولعله بلغات الأقوام التي وردت فيه يؤسس لعالمية اللغة العربية، فضلا عن الدين الذي بعث به محمد ﷺ إلى الناس كافة.. فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، وبالقرآن أُعِدّ اللسان العربي ليكون لسانا كونيا بما يقتضي ذلك من أخذ وعطاء، تظل العربية معهما محفوظة الرصيد متجددة المتن.

وقد كان لتعايش الأعراق البشرية المختلفة في ظل الإسلام أثر في تحقيق التداخل اللغوي ذي الاتجاهين. وحسبك أن يكون التمازج البشري بين العرب والأفارقة قد أفرز مجتمعا ولغة جديدين (السواحيلي – السواحيلية).

وقد بلغ التداخل اللغوي بين العربية وبعض اللغات الإفريقية نحوا من مبلغه في المشرق بين العربية والفارسية أو التركية. وكان أثر هذا التداخل بارزا في اللهجات العامية العربية بشكل خاص. ثم إنه كان مصدرا لنوع طريف من أنواع الأدب (الملمع) يمزج بين العربية واللغات الأخرى في متن عروضي عربي سليم.

لقد ظهر هذا النوع من الأدب في المشرق وفي الأندلس، وكان له ظهور متأخر في التخوم العربية للبلاد العربية حيث تتعانق موريتانيا والسنغال.

ولعل نماذج منه توضح ما نذهب إليه، ولنختر نصين أحدهما لسنغالي مستعرب والثاني لعربي موريتاني.

يقول ابن المقداد :

يا خودُ إن غراب البين منك (سوخُ)
فزُرت أطلب من وصل لديك (سرخ)
ضننتِ بالوصل حتى بالحديث، ولا
أرى ضنينا سواك [قط] ضنَّ (وَخْ)
لا تمنعي الوصل ممن يستهام به
أتمنعين وصال المستهام (لُتَخْ ؟)
لم تعلمي أن خير الناس أكرمهم
والخير أبقى وإن طال الزمان..إلخ[32]

لم يكثر الشاعر السنغالي في أبياته من المفردات «الولفية»، بل اقتصر على أربع كلمات لكن الشاعر الموريتاني أحمد بن الشيخ محمد بن أحمديه يذهب أبعد من ذلك في قطعته التالية :

قلت ــ وحيعل المنادي وابتهل –
(جُحْم مَجِسْلَ ثُوتِ) قالت : حيهل
ثم انثنت ذات خصام وجدل
تقول – لا أبغي بقولها بدل – :
(دَمار كُلُ صفرَ بابَلْ [مَ] دملْ)
فانهل دمع العين مثنى وانهمل
قلت لها وجدا، وجودا لم أخل :
(عمُنا تِ بوُ سخُل) فقالت لي :(وَخَلَ)
فقلت (يَوْمَيْمَ مفسون، لَيْسَوَلْ)
قالت، فلما جئت قالت : (تَخَوَلْ)

قلت لها (فيمَ اسْمَبَرْ) قالت : (حُمُلْ
دَرَ، دَمَلْ فِي دكنلْ سَفَي عَمُلْ)[33]

تبدو الولفية لغة السر، أو المكتوم في هذا النص الغزلي، بينما يكاد يقتصر دور العربية على الربط بين حلقات الحوار. ونحن واجدون في هذا الجدل الغزلي، وفي سابقه، شهادة على«الجدلية» - بالاصطلاح المحدث ــ التي طبعت حينا من الدهر العلاقة بين اللغة العربية واللغات الإفريقية، ممثلة هنا بالولفية.

وبالجملة، فقد كانت العربية هدية ثمينة قدمها الإسلام لشعوب إفريقيا وقبائلها؛ فبقدر ما كانت العقيدة الإسلامية طريق الأفارقة للم شتاتهم، والخروج من الصراعات القبلية و «الأثنية» إلى فضاء رحب من التآخي والتآلف في ظل رسالة كونية تساوي بين المؤمنين؛ كذلك كانت لغة الإسلام (العربية) الأداة الأولى التي استطاعت بها أمم من الأفارقة أن تحل مشكل التعدد اللغوي، الذي يقف عائقا أمام التواصل الثقافي، وتبادل المنافع الإقتصادية، والتعاون على شئون الحياة عامة.. وكانت العربية بذلك، وحيثما وجدت في القارة لغة تحرير وتكوين لا لغة اخضاع أو استلحاق[34]، هذا إلى كونها لغة توحيد، فباللغة العربية، لا بغيرها من اللغات الإفريقية (فضلا عن اللغات الغربية) كان باستطاعة مثقفي افريقيا المسلمة، من قبائل وشعوب مختلفة ومناطق متباعدة أن يتخاطبوا.. وبها دون غيرها من اللغات يستطيع الافريقي المسلم اليوم أن يتصل بماضيه ويطلع على تراث آبائه وأجداده. لذلك لا عجب أن نجد مثقفي افريقيا العربية، ومن الفرنكفونيين بالذات، يطالبون الإدارة الفرنسية، في خمسينات القرن العشرين، بتعميم تعليم اللغة العربية في المدارس معللين طلبهم بأن اللغة العربية عامل وحدة في المنطقة.

وقد فسر المفوض السامي الفرنسي بغرب افريقيا هذه المطالب بأنها «ترجمة لرغبة المثقفين المسلمين (في المنطقة) في التقارب مع العالم العربي وذريعة للمتطرفين لمحاربة الوجود الفرنسي، وقال إنها دعاية انتخابية تسعى الأحزاب السياسية بواسطتها إلى توسيع قاعدتها الشعبية»[35].

وبهذا التفسير تكون الإدارة الفرنسية قد اعترفت بأن القاعدة الشعبية في غرب افريقيا كانت مع العربية، وضدّ الفرنسية حتى بعد عقود طويلة من محاولات التدجين في ظل الهيمنة الاستعمارية.

هوامش

(1) أنور الجندي/اللغة العربية.....ص 7

(2) ن م(*)ص 6، 7.

(3) L'égypte en mutation P 36.

(4) Mamadou Dia/Islam et Civilisations Negro-Africaines p. 37.

(5) كي زربو ــ انظر V. Monteil/Islam noir p 53.

(6) M. Cornevin/Histoire de l'Afrique p 349

(7) م س(* *) V. Monteil - P 325

(8) ن م P. 276.

(9) انظر : أنور الجندي/العالم الإسلامي والإستعمار...ص 371.

(10) حلمي شعراوي/مدغشقر... وانظر : افريقيا، كتاب غير دوري/عدد 2 ...يوليو 1988 ص 56.....

(11) انظر : Cornevin, - P 50 -

- J. Cuop/Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest - P 284

- V. Monteil - P 284.

وانظر : أحمد العايد في (العلاقة بين اللغة العربية واللغات الافريقية/المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ تحت الطبع).

(12) انظر : أحمد العايد، م س، ويوسف الخليفة أبوبكر في (العلاقة بين اللغة العربية...م س) و V. Monteil - P284

(13) انظر : أحمد العايد وأبوبكر خالد با في (العلاقة...م س)

(14) انظر : إسحق أوجنبيي في (العلاقة...م س)

(15) انظر : يوسف الخليفة وأحمد دياب وأحمد العايد في (العلاقة...م س).

(16) انظر : سيد حامد حريز ومحمد عبد العزيز في (العلاقة...م س).

(17) انظر : عبد القادر الشيخ، وأحمد دياب في (العلاقة...م س)

(18) انظر : أحمد دياب وأبو بكر خالد با في (العلاقة...م س)

(19) انظر : إسحق أوجنبيي، م س.

(20) انظر : عبد الله بالدي وأحمد العايد في (العلاقة...م س).

(21) الخليل النحوي/بلاد شنقيط...ص 262.

(22) انظر : ساليو كانجي، في (العلاقة... م س).

(23) المجلد 13 ــ 1396 هـ/1976 م.

(24) مرجع سابق – ص 38.

(25) مرجع سابق.

(26) مرجع سابق – 309.

(27) J. Ki-Zerbo/Histoire de l'Afrique noir - P 14, 104.

(28) انظر : د. أحمد إلياس في (دراسات افريقية/عدد 2/شعبان 1406 هـ).

(29) أنور الجندي/العالم الإسلامي... ص 371، 372.

(30) العلاقة... مرجع سابق

(31) عدد فبراير 1982.

(32) عامر صمب/الأدب العربي في السنغال – ج 1 ص 100. المفردات الولفية (موضوعة بين قوسين) : سوخ : كلامك، سرخ : صدقه، وخ : الكلام، الحديث – لتخ : لماذا ؟. وقد أضفنا (قط) في عجز البيت الثاني ليستقيم الوزن، فلعلها سقطت من المرجع.

(33) المختار بن حامد/حياة موريتانيا ــ ص 148. وقد وضعنا الكلمات الولفية بين قوسين، وهي مادة جدل غزلي تتمتع فيه المحبوبة خوفا من النار، وترفض الوفاء بوعدها.

(34) Mamadou Dia, - P 37

(35) الخليل النحوي، مرجع سابق – ص 369، 370.

(*) تعني : نفس المرجع.

(* *) تعني : مصدر سابق.